المنهج التكاملي

يختلف النقد التكاملي عن بقية انماط النقد الاخرى ، لانه لايعتمد على منهج واحد ، وإنما يستعين بمناهج عدة في دراسته وتقييمه للاثر الادبي .

وقد عرف هذا النقد بتسميات أخرى منها " المتكامل " أو" التركيبي" أو "المركب" أو" التعددي" أو" المتعدد" أو " المتكثر" أو "الكلي " أو " الحواري " أو "منهج اللامنهج " -1- وهي مصطلحات ذات مفهوم واحد أو متقارب .

ويبدو أن الناقد "سيد قطب " هو أول من دعا إلى هذا النوع من النقد في كتابه " النقد الادبي أصوله واتجاهاته " عام 1948. فقد حصر المناهج في ثلاثة انواع (الفني ، التاريخي ، النفسي ) وذهب إلى أن " ومن مجموعة هذه المناهج قد ينشأ لنا منهج كامل نسميه " المنهج المتكامل "-2- وهو عنده " يتناول العمل الادبي من جميع زواياه ، ويتناول صاحبه كذلك ، بجانب تناوله للبيئة والتاريخ ، وأنه لا يغفل القيم الفنية الخالصة "-3- وهو يؤثره على غيره من المناهج الاخرى لأنه " ينتفع بهذه المناهج الثلاثة جميعا ، ولا يحصر نفسه داخل قالب جامد أو منهج محدد ". -4-

والتتبع التاريخي لهذا المنهج يوقفنا على حقيقة أن حلقة أو دائرة أنصاره أخذت قي الاتساع في مطلع الستينيات ، ومن هؤلاء شوقي ضيف الذي يعلن صراحة أنه من أفضل المناهج حين يقول " خير منهج ينبغي أن يتبع في دراسة الادب هو المنهج التكاملي الذي يأخذ بحظ من كل هذه المناهج مفيدا منها جميعا " -5- ولا يخفي محمد مصطفى هدارة انجذابه إلى هذا المنهج وانحيازه إليه ، حيث يقول " أما منهجي في تحليل النصوص فهو مزيج من مناهج متعددة ، منها الجمالي والنفسي والتاريخي والأسلوبي ، وأرى في الاقتصار على منهج واحد حجبا لقيم كثيرة مؤثرة في تحليل النصوص "-6-. فالمنهج التكاملي عنده لا يعتمد على منهج واحد وانما يجمع بين مناهج عدة ، تسهم في إضاءة النص الأدبي من زوايا مختلفة لا يوفرها المنهج الواحد.

يقول الباحث حسن درويش :" إن النقد التكاملي يدرس العمل الادبي دراسة لا تقتصر على منهج معين ، من مناهج الاتجاه الفني أو النفسي اوالاجتماعي ، بل هو مجموع هذه المناهج المتفرقة " . فهو لم يختلف عن غيره في الاشارة إلى هذا المنهج كونه ليس واحدا ولكنه متعدد .

ولعل من أكثر النقاد الذين تشيعوا لهذا المنهج ، وروجوا له ونادوا بضرورة الاعتماد عليه في تحليل النصوص ، الناقد نعيم اليافي الذي يقول عنه : " هو المنهج الذي يشرئب إليه النقد الآن وربما في العقود المنظورة الاتية". فالنقد يتطلع إلى هذا المنهج ليس في الوقت المرحلي الآني فقط ولكن فيما يقبل من السنوات مستقبلا . وهو يرى" أن المنهج التكاملي وجهان لعملة واحدة ، وجه التعددية ووجه الحوارية ، وهذان الوجهان متداخلان متشابكان فأنت لا يمكن أن تعيش التعددية إلا إذا توسلت بالحوار ، ولا يمكن أن يتم لك الحوار إلا إذا كانت ثمة تعددية ، وما التكاملية إلا لقاء وتفاعل بين اتجاهات شتى ، كل منها يحرث في حقله ،وتريد أن تبحث عن نواظم عامة مشتركة ". فالتكامل يقتضي الالتقاء اولا ثم التحاور ليحدث التفاعل الذي يدل على التجانس والانسجام .

1-ينظر يوسف وغليسي ، مناهج النقد الادبي ،ص 43.

2- سيد قطب ، النقد الادبي أصوله واتجاهاته ، دار الشروق ، ط5، القاهرة 1983 ، ص 116.

3- سيد قطب ، المرجع نفسه ، ص 228.

4- المرجع نفسه ، ص 8.

5- شوقي ضيف ، البحث الادبي ، ص273.

6- نقلا عن يوسف وعليسي ، المرجع السابق ، ص36.

يتضح مما سبق أن من أبرز سمات التكاملية الاعتراف بوجود الكثرة المتحاورة الداعية إلى التفاهم والتلاحم بالاستناد إلى الحوار. وفي هذا الصدد يرى " نعيم اليافي " وجوب الايمان " بتعددية المناهج النقدية وحقها في الحوار والحياة بعيداعن المصادرة أومحاولة فرض منهج أحادي يزعم لنفسه القدرة المطلقة على حل إ شكالات الثقافة المتنوعة "-1-.

كما كان المنهج التكاملي موضع اهتمام كتب النقد ، التي عنيت بتصنيفه إلى جانب المناهج الاخرى وفق ما يرى "يوسف وغليسي " في كتابه (مناهج النقد الادبي ) -2- ويمكن أن نذكر منها :

كتاب " النقد الأدبي الحديث" لاحمد كمال زكي الذي يشير إلى أربعة اتجاهات نقدية ، من بينها المنهج التكاملي الذي يراه لايخضع لأي تعريف فني واضح المعالم ، فهو ليس نقدا تاريخيا خالصا ولانقدا بلاغيا ضيقا ، ولا نقدا نفسيا ...كما أنه لايقف عند حدود معينة .

و كتاب " في النقد الادبي " لعبد العزيز عتيق الذي يعنى فيه بالحديث عن المناهج النقدية ( الفني والتاريخي والنفسي ) والمنهج التكاملي الذي" يتألف من المناهج الثلاثة السابقة ويستخدمها مجتمعة متكاملة كلما استدعى النقد ذلك . وعلى هذا فهو منهج مرن لايقف عند حدود معينة ، وإنما يأخذ من كل منهج ما يراه مساعداعلى إصدار أحكام متكاملة على الاعمال الادبية من جميع جوانبها .

وكتاب " اتجاهات النقد المعاصر في مصر " للباحث شايف عكاشة ، الذي يحددد فيه المنهج التكاملي بقوله : " المنهج الذي يدرس العمل الادبي دراسة لاتخضع لمنهج معين ، فهو ليس منهجا تأثريا ، وليس منهجا من مناهج التجاه الاجتماعي أو النفسي أو التاريخي أو الجمالي ، بل هو مجموع هذه المناهج المتفرقة .

و كتاب " النقد الادبي الحديث " لصالح هويدي ، الذي يقول عن المنهج التكاملي : "منهج نقدي مرن ، لايقتصر فيه صاحبه على منهج معين ...ليتحول عقله إلى مرآة تعكس أضواء مجموع تلك المناهج دون انحياز إلى منهج محدد ، محققا التكامل من غير أن يكون ثمة طغيان لمنهج على اخر.

وإذا كان المنهج التكاملي قد لقي الاستحسان والقبول لدى البعض ، فإنه على طرف النقيض من ذلك قوبل بالرفض والانكار من لدن البعض الاخر نحو ما نجده عند "سعد الدين كليب " الذي يرفضه إذاأبقي فيه على الادوات المعرفية للمناهج مجتمعة والتي نسميها (المنهج التكاملي ) حيث يقول : "كل منهج تأسس في الغرب أنتجه فكر وصاغه مجتمع ، وحدده جهاز معرفي متناسج المفهومات والمصطلحات . لان كل منهج نقدي يستعان ببعض أجزائه أوبه في صناعة المنهج التكاملي هو حامل لحمولات فكرية وفلسفية ولأدوات معرفية خاصة به ، ومن شأن هذه الادوات أن توقع المنهج التكاملي في تناقض في حال استخدامه لأدوات معرفية لمنهج اخر غيرهذا المنهج "-3- . فهو يقر صراحة ودون مواربة انه لا يعترف بهذا المنهج اذا احتفظ بادواته المعرفية ويرفضه رفضا تاما .

وفضلا عن سعد الدين كليب وسعيد علوش ، فقد رفضه أيضا جابرعصفور الذي يرى انه لا يبتعد غن كونه عملية تلفيقية تؤدي إلى الغموض وتضارب المفاهيم ، كما رفضه شكري عزيز ماضي ويبدو أن عبد المالك مرتاض من أشد الرافضين والمنكرين

1-سعدلي سليم ، المنهج التكاملي بين الرفض والقيول ،ص 15.

2- يوسف وغليسي ، مناهج النقد الادبي الحديث ، ص 40.

3- سعدلي سليم ، المنهج التكاملي بين الرفض والقبول ، ص30.

له، بل لقد بلغ به أمر رفضه إلى حد الااستهزاء والسخرية منه ، حيث يقول : " أولى لنا أن ننشد منهجا شموليا ولاأقول منهجا تكامليا ، إذ لم نر أتفه من هذه الرؤية المغالطة التي تزعم أن الناقد يمكن أن يتناول النص الأدبي بمذاهب نقدية مختلفة في آن واحد فمثل هذا المنهج مستحيل التطبيق عمليا ، ...ومهما يكن من أمر فإن مثل هذا السلوك الفكري يشبه الشطحة البهلوانية التي لو طبقت في مجال العمل لأمست ضحكة هزأة "-1- .والغريب أ ن مرتاض نفسه يطبق منهجا مركبا في كثير من مؤلفاته ، لكن ذلك في نظر تلميذه (يوسف وغليسي) -2-لا يعني أنه متناقض ، ويبرر ذلك بأن تركيب مرتاض يختلف عن تكاملية غيره ، فهو في " تركيبه" يحرص على التجانس المنهجي بين عناصر التركيب ، بينما لاتشدد بعض الاراء " التكاملية" على ذلك ، فقد تكامل بين مناهج متناقضة في الرؤى ، متعارضة في المنطلقات ، وهوعمل لايخلو من عبث .

ونحلص إلى ما اانتهى إليه (سعد الدين كليب ) أن المنهج التكاملي الذي يمكن الاطمئنان إليه هو الذي يراعي مبدأ الانسجام بين أدوات معرقية لمناهج مختلفة الخلفيات المعرفية والمذهبية والفلسفية.

1-يوسف وغليسية، مناهج النقد الادبي ، ص 45.

2- المرجع نفسه ، ص45.